الفصل الثانى

البيئة فى الإسلام
بين الفكر النظرى والتطبيق العملى

المبحث الأول : قضية نظرة الإسلام إلى الكون والطبيعة.

المبحث الثانى : حفاظ الإنسان على البيئة.

المبحث الثالث : تحديد المشكلة البيئية فى المنظور الإسلامى.

المبحث الرابع : حماية البيئة فى الإسلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثانى

قضية نظرة الإسلام إلى الكون والطبيعة :

تعتبر البيئة كياناً حياً نابضاً، والنصوص متواترة على أنها كيانات حية لها حس وانفعال خاص.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿٤٤﴾﴾[الإسراء].

ويقول تعالى عز وجل﴿ .. يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾﴾[سبأ].

ويقول: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾﴾[الدخان].

ويقول تعالى: ﴿ .. وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[الحج].

ويقول تعالى:

﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنبياء].

فالأرض ليست مجرد جرم يطأه الناس بأقدامهم ويفعلون على ظهرها ما يشاءون، فالآيات السابقة تؤكد أن البيئة كيان حى ولا يكون المرء مجانباً للصواب. إذا تأكد لديه: أنه لا يخلو أى شىء من مخلوقات الله من حكمة، ومن الحكمة من خلق البيئة ومكوناتها:

١ - أنها مخلوقة لبنى آدم ومسخرة لهم ومذللة، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[الملك].

٢ - أنها آيات دالة على قدرة الله، يقول عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات].

٣ - أنها مجال خصب للتذكير بالله، والتفكر فى عظيم صنعه، فالكون بمكوناته صغيرها وكبيرها يشتمل على حشد هائل من مظاهر قدرة الله.

ونستطيع إدراك تلك الأسرار عن طريق التفكير الواعى، والنظر العميق إلى ما أودعه الله من التقدير والتدبير قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾
[آل عمران]

وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الذاريات].

وقال سبحانه ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[عبس].

وتتمثل نظرة الإسلام إلى الكون، والطبيعة ومواردها فى النقاط التالية:

١ - أن كل ما خلق الله فى الكون خلقه بمقدار كما وكيفاً. قال تعالى:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[القمر].

وقال تعالى: ﴿ ... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾[الرعد].

وقال عز وجل: ﴿ .. وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾[الحجر].

ففى هذا الكون التنوع والاختلاف، وفى عناصره تحقيق لمصلحة بنى آدم ودليل على عظمة الخالق، ويعتبر الإنسان جزءا من هذا الكون الذى تكمل عناصره بعضها بعضاً ولكن الإنسان جزء متميز ، وله موقع خاص بين أجزاء الكون.

٢ - إن الله لم يخلق شيئاً فى هذا الكون عبثاً بل لحكمة أو غاية، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٣٩﴾ ﴾[الدخان].

وبالتالى فإنه يجب النظر إلى الكون نظرة عميقة حيث إن كل الأشياء فيه مخلوقة لعبادة الله الذى يرزق بعضها.

فالمقصود من خلق كل المخلوقات هو عبادة الخالق، وذلك عن طريق أدائها الوظائف المقدرة لها فى نفع بعضها بعضاً مما يؤدى إلى تكافل كونى شامل (فمصلحة الخلق كافة أصل يمتد فى تنسيق الكون، كما أنه مهم لتوحيد العبودية لأن عبادة الله إنما تتحقق بأداء الأعمال الصالحة التى من شأنها تحقيق مصالحهم أجمعين)[١].

٣ - إن الله استخلف الإنسان فى الأرض، فبالإضافة إلى كونه جزءاً من الكون، ومنفذاً لأوامر الله الكونية، فهو مدين لهذه الأرض لا مالك لها ومنتفع بها لا متصرف.

وقد يكون واضحاً.. أن خلافة الإنسان فى الأرض ارتبطت بتسخير الله سبحانه وتعالى للإنسان وتمهيدها له ليعيش عليها صالحة، ويحيا فيها حياة كريمة.

وذكر الله سبحانه وتعالى فى مواضيع مختلفة من القرآن الكريم تسخير ما فى السماوات والأرض للإنسان.

---

(١) أبو بكر أحمد باقادر وآخرون - حماية البيئة فى الإسلام، الرياض - مصلحة الأرصاد وحماية البيئة - ١٤٠٩هـ - ص٢.

فالله سخر للإنسان الأرض وما فيها من نعم ظاهرة وباطنة، وسخر البحار والأنهار، وسخر الأنعام، وسخر الرياح.

وفى الواقع أن ما سخره الله للإنسان وما جعله خليفة فيه. ما هو إلا مكونات البيئة، والتى يجب الحفاظ عليها ليظفر الإنسان بحياة طيبة.

ولابد أن يدرك الإنسان أن الله لم يجعل خلافة الإنسان فى الأرض مطلقة، ولم يطلق يديه فى هذه المخلوقات يتصرف فيها كيف ومتى شاء.

صحيح أن الإنسان مستخلف فى هذه الأرض، ولكن الاستخلاف يعنى إدارة الأرض وليس التصرف فيها كأنها ملك له، والاستخلاف يعنى أيضاً الانتفاع بها دون التصرف بوجه غير مشروع وبما أن الإنسان مستخلف عن إدارة الأرض واستثمار ما فيها فهو أمين عليها. ومن الأمانة تعمير الأرض، ونشر العمران فى ربوعها[1].

وقد أمر الله عباده بالسعى، والعمل الجاد، والاجتهاد فى هذه الحياة الدنيا كى يرتفعوا إلى مستوى الخلافة والتمكين فى الأرض، وذلك بتعميرها وإحيائها وتسخير طاقاتها لخدمتهم وخدمة الإنسان.

قال تعالى: ﴿ .. هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴿٦١﴾ ﴾[هود].

وفى تفسير ذلك يقول الجصاص: «يعنى أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[2].

ويقول سبحانه وتعالى مؤكداً وجوب عمارة الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأعراف].

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى من التشريعات الإسلامية الواضحة المعالم والجليلة المقاصد. ما يقضى به على عوامل البطالة والفقر داخل المجتمع

---

(١) خالد محمود عبداللطيف - البيئة والتلوث من منظور إسلامى - ص ٨٢، ٨٣ - القاهرة - دار الصحوة للنشر ١٤١٣/ ١٩٩٣.

(٢) الإمام الجصاص - أحكام القرآن - جـ٣ - ص١٦٥ - دار الكتاب العربى ١٣٢٥.

الإنسانى، وبما يكفل حصول كل فرد على ما يحفظ كيانه ويصون حياته وكرامته.

ومن هذه التشريعات أنه عز وجل هيأ للإنسان من أسباب الاختصاص المباح ومنه الأرض الموات فإذا ما وضع الإنسان يده على الأرض الموات حقيقة. بأن أفرغ فيها من جهده وماله ووقته تحولت بإذن ربها إلى أرض صالحة للانتفاع، وللزراعة.

وإن فتح باب إحياء الأراضى الموات إنما هو فتح لباب العمارة فى الأرض بما يحقق تنمية ثروة المجتمعات، باستغلال واستثمار الموارد الأرضية، والبيئة المتاحة، وتفجير الطاقات الكامنة فيها[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ وهو القدوة الحسنة يهتم بالأرض وما عليها، لأن القرآن الكريم.. وهو قانون السماء لأهل الأرض يقول: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿١٠﴾** ﴾ [الجمعة].

قال تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾** ﴾ [الجاثية].

وقال عز وجل: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾** ﴾ [النحل].

٤ - إن جميع موارد الحياة خلقها الله لنا، وبالتالى فإن الانتفاع بها يعتبر فى الإسلام حقاً للجميع، ولذلك فإنه يجب أن يراعى فى استخدامها مصلحة الناس جميعاً، وينبغى أن لا ينظر إلى هذه الملكية على أنها منحصرة فى جيل معين دون غيره، بل هى ملكية مشتركة لجميع الناس، ينتفع بها كل جيل بحسب حاجته دون إخلال بمصالح الأجيال القادمة.

---

(١) عاطف أبو زيد - إحياء الأراضى الموات فى الإسلام - ط رابطة العالم الإسلامى - عدد رقم ١٦٤ - شعبان ١٤١٦هـ - ص١٠٢٩.

٥ - إن حق الاستثمار والانتفاع والتسخير الذى شرعه الله للإنسان يقابله واجب يقتضى المحافظة على الموارد الطبيعية كما وكيفاً.

فقد خلق الله جميع أسباب الحياة للإنسان لتحقيق العديد من الأهداف كالتفكير والعبادة، والسكن والتعمير، والمتعة وتذوق الجمال إضافة إلى الانتفاع والاستثمار.

فلا يجوز للإنسان إفساد البيئة بإخراجها عن طبيعتها المناسبة لحياة البشر واستقرارهم فيها، كذلك لا يجوز استثمار تلك الموارد بشكل غير رشيد يفسد مواردها أو يعرضها للتشويه.

٦ - موقف الإسلام من البيئة ومواردها هو موقف إيجابى، فكما يقوم على الحماية ومنع الفساد يقوم أيضاً على البناء والتعمير والتنمية، حيث أمر الإسلام بإحياء الموات وعمارة الأرض، فغاية الإسلام من المحافظة على البيئة وعمارتها: تحقيق مصلحة عباد الله كافة.

obeikandl.com

المبحث الثاني

حفاظ الإنسان على البيئة :

إذا كانت البيئة تختلف من منطقة لأخرى من خلال اختلاف مكونات أو معطيات كل منها فإن الإنسان بدوره أيضاً يختلف من منطقة لأخرى تبعاً لقدراته العلمية والتكنولوجية.

ويمكن أن نقسم سكان العالم بصفة عامة إلى مجموعتين أساسيتين هما:

إنسان متطور ومتقدم ، وإنسان متخلف. مع الأخذ فى الاعتبار أن كلاً من درجتى التطور والتخلف تتفاوت فى درجاتها من منطقة لأخرى.

ومن هنا يختلف تأثير الإنسان فى البيئة بين الإيجابية (المكانية) وبين السلبية (الحتمية) . كما يختلف تأثير الإنسان تبعاً لكثافته حيث تتفاوت الكثافة السكانية بين الكثافة العالية والمتوسطة والقليلة أو المخلخلة.

وليس ثمة شك أن كثافة الناس، فى بيئة ما تفرض نفسها على أنشطة الإنسان، وما يبذله من جهد لاستغلال موارد بيئته. وحتى نتبين أثر الإنسان فى بيئته سنحاول أن نستعرض معاً ما يبذله الإنسان من جهد لتطويع مكونات البيئة، وإخضاعها لسيطرته، بما يحقق طموحاته وأهدافه[1].

فإذا أخذنا البيئة الجبلية، رأينا أنها تضع أمام الإنسان الكثير من التحديات والمعوقات التى يحاول الإنسان جاهداً بكل ما أوتى من تقدم وتطور أن يتغلب عليها. ففى مواجهة انحدار سفوح الجبال قام الإنسان بتحويل هذه السفوح إلى مدرجات أو مصاطب ليحقق لنفسه الأرض المستوية التى تمكنه من ممارسة الإنتاج الزراعى دون مخاطر أو مشكلات (مشكلة جرف التربة، وضعف تشرب

---

(١) زين الدين عبدالمقصود - البيئة والإنسان علاقات ومشكلات - عمان - الأردن - دار الشروق - ١٩٨١م - ص٣٨.

التربة لمياه الأمطار). وبهذا الأسلوب استطاع الإنسان أن يستغل الكثير من السفوح الجبلية فى مجال الإنتاج الزراعى دون مخاطر أو مشكلات. كما قام بشق الأنفاق عبر الجبال للتغلب على مشكلة صعوبة الاتصال التى تفرضها الجبال.. كما استطاع من خلال تطور تكنولوچية إنشاء الطرق أن يتغلب على صعوبة الانحدارات وخطوط الكنتور العالية، ومن ثم تم كسر حاجز العزلة عن الكثير من البيئات الجبلية. كما تمكن من استغلال الانحدار الشديد واندفاع المياه عبر المجارى المائية محدثة الكثير من الشلالات والمساقط فى توليد الطاقة الكهربائية واستغلالها فى خلق الكثير من الصناعات.

ويتجلى أثر الإنسان وإيجابيته بشكل واضح فى البيئات الجافة وشبه الجافة.. فالبيئة الجافة كما نعرف من البيئات القاسية ، والتى تضع أمام الإنسان الكثير من المعوقات الطبيعية من أهمها ندرة المياه وتحركات الرمال وملوحة التربة.

وقد استغل الإنسان ما لديه من علم وتكنولوچيا فى التغلب على كل هذه المعوقات ليتمكن من استغلال موارد هذه البيئة. فبالنسبة لندرة المياه قام الإنسان بالبحث عن بدائل تمكنه من مواصلة الحياة فى هذه البيئة القاسية. فقد استطاع أن يكتشف مخازن المياه الجوفية (السطحية والعميقة) وأن يضخها للاستفادة منها فى مجال الإنتاج الزراعى والعمرانى.

ومن هنا ارتبطت تجمعات السكان فى هذه البيئات بمناطق المياه الجوفية. من أمثلة ذلك: واحات القصيم والإحساء بالسعودية ، ومنطقة الوفرة والعبدلى بالكويت، ومنطقة العين بدولة الإمارات العربية المتحدة، ومناطق الواحات فى صحراء ليبيا (واحة جغبوب) وواحات مصر والجزائر ، وغيرها.

وقد استطاع الإنسان مؤخراً استغلال الأقمار الصناعية (اللاندسات/ ٣) فى تحديد مناطق الخزانات الجوفية العميقة، تمهيداً لاستغلالها.

كما استطاع الإنسان أن يوفر لنفسه موارد مياه عذبة عن طريق تحلية مياه البحر حتى أصبحت المياه المحلاة مورداً مهماً لمياه الشرب، فى الكثير من البيئات الجافة، ومن أمثلة ذلك منطقة الخليج العربى التى تعتبر من أكثر مناطق العالم اعتماداً على المياه المحلاة فى الشرب والنشاط الصناعى بل وتتجه النية لاستغلال هذه المياه المحلاة فى مجال الإنتاج الزراعى عن طريق الزراعة المحمية والرى بالتنقيط.

كما لجأ الإنسان إلى إقامة بعض السدود عبر المجارى المائية التى تخترق هذه البيئات بهدف تخزينها، وضبط استخدامها (مجموعة السدود المقامة على نهر النيل ودجلة والفرات بالإضافة إلى العديد من السدود الصغيرة).

وأخيراً لجأ الإنسان إلى معالجة مياه المجارى الصحية وإعادة استغلالها فى مجال الإنتاج الزراعى والصناعى بل وأحياناً للشرب.

وخير مثال على ذلك ما قامت به الكويت من معالجة مياه المجارى الصحية فى محطة العارضية، واستغلالها فى رى مشروع الرى الزراعى بالصليبية (٩٢٠٠دونم).

كما لجأ الإنسان إلى تطوير وسائل الرى لمواجهة قلة موارد المياه باستخدام وسائل رى اقتصادية مثل الرى بالتنقيط Drip irrigation ، وهو نمط من الرى يوفر ما بين ٣٠٪ إلى ٧٠٪ من كمية المياه المستخدمة إذا ما قورن بالرى العادى.

كما لجأ الإنسان إلى استخدام الرى بالرش Sprinle irrigation، وقام بتطين قنوات الرى، أو استخدام الأنابيب الأسمنتية أو البلاستيكية لتقليل مقدار الفاقد بالتسرب أو التبخر.

وفى مواجهة ملوحة التربة قام الإنسان بغسل التربة، عندما توفرت له موارد المياه (مجارى مائية).

كما حدث فى شمال الدلتا بمصر وباكستان، وجنوب العراق. . كما قام بإضافة الجبس ليقلل من ملوحتها، أو باستنباط محاصيل تتحمل ملوحة التربة.

وتتجلى قدرات الإنسان وإمكانياته فى إعادة بناء التربة بما يحقق أهدافه. ففى البيئات ذات التربات الثقيلة لجأ الإنسان إلى إضافة الرمال لتفكيكها وتحويلها إلى تربة خفيفة نسبياً ليحقق لنفسه الفرصة فى تنويع محاصيله الزراعية.

بينما فى مناطق التربات الرملية (الواسعة النفاذية) أضاف إليها الطمى فى بعض الأحيان والأسمدة العضوية فى أحيان أخرى لتقليل درجة المسامية ليزيد من قدرة التربة على الاحتفاظ بالمياه من ناحية، وزيادة خصوبتها وتنويع محاصيلها من ناحية أخرى.

وفى مواجهة التربات الحمضية لجأ إلى إضافة الجير لإحداث درجة من التعادل والتخلص من الآثار الضارة للحموضة الزائدة.

كما واجه التربات الفقيرة بتخصيبها عن طريق إضافة الأسمدة العضوية والكيماوية والأسمدة الخضراء (زراعة نباتات مخصبة للتربة مثل البقوليات والبرسيم أو الجت) ليزيد من قدرتها الإنتاجية.

وفى مواجهة مشكلة تحركات كثبان الرمال فقد قام الإنسان بمحاولة وقفها أو تثبيتها من خلال استزراع مصدات الرمال من حول القرى والطرق، أو بتغطيتها بطبقة من مشتقات النفط (القار) كما حدث فى منطقة الإحساء بالسعودية، أو باستزراع هذه الكثبان بنباتات مثبتة لها مثل نبات الفضى، والذى نجح فى تثبيت مناطق الكثبان الرملية فى إيران أو نبات الهيلاريا الذى نجح فى تثبيت الكثبان الرملية فى ليبيا.

وفى مواجهة التقلبات المناخية وخاصة حدوث الصقيع أثناء فصل الشتاء لم يقف الإنسان موقفاً سلبياً بل قام بتغطية المحاصيل الزراعية سريعة التأثر بالصقيع بأغطية بلاستيكية ، أو ما يسمى بزراعة الشبرات، أو الزراعة المحمية

كما هو الحال فى منطقة العبدلى والوفرة بالكويت وغيرها من البيئات التى تخضع لنوبات الصقيع.

وكما نجح الإنسان فى استنباط الكثير من السلالات التى تتحمل قسوة الظروف المناخية، أو التى تنمو فى فصل نمو أقصر من فصل نموها لا يتعدى تسعين يوماً بينما القمح الشتوى يحتاج إلى فصل نمو يمتد ليشمل ١٢٠ يوماً.

وقد أدى هذا الإبداع البشرى فى إيجاد سلالات جديدة وإلى إمكانية زراعة برارى كندا وكثير من برارى الولايات المتحدة والكثير من مناطق سهول سيبيريا بالاتحاد السوفيتى.

كما نجح الإنسان من خلال اختراعه لأجهزة التبريد والتكييف والتدفئة فى التغلب على المعوقات الحرارية وصنع ظروفاً حرارية مناسبة تتيح له القدرة على العمل والنشاط وبذل الجهد، كما استخدم الآلات والمعدات الثقيلة فى شق الأنفاق وتشييد الطرق وتسوية الأرض واستخراج المعادن من باطن الأرض، وتغيير الكثير من ملامح البيئة بما يسهل عليه استغلالها.

وإذا كان الإنسان قد قام بالكثير من المتغيرات الإيجابية بما مكنه من استغلال موارد بيئته، فإنه فى نفس الوقت أحدث بعض المتغيرات الضارة بيئته، والتى أسهمت فى إفساد موارد البيئة وإحداث خلل فى نظامها البيئى على نحو ما سيرد تفصيله فى المبحث التالى من خلال بيان كيفية حفاظ الإنسان على البيئة.

حفاظ الإنسان على البيئة فى التصور الإسلامى:

صور أحد علماء الغرب (فروم، ١٤١٠هـ) العلاقة بين الإنسان وبيئته بقوله:

«إن علاقة الناس بالطبيعة اتسمت بالعداء الألد فنحن من نزوات الطبيعة، ظروف وجودنا تجعلنا جزءاً منها وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها. ومن

ثم فقد حاولنا أن نحمل مضلة وجودنا بنبذ رؤية الخلاص المتمثلة فى الانسجام بين الجنس البشرى والطبيعة، واتجهنا نحو إخضاعها وقهرها وتحويلها إلى تحقيق أغراضنا»[1].

ومصدر الداء فى علاقة الإنسان غير المسلم بالبيئة، أن ذلك الإنسان يخلى الحلبة ليكون فى مواجهة ومقابلة البيئة ، دون استشعار وجود محكم لهذا الكون، فنجد أن علاقة الإنسان غير المسلم بالبيئة علاقة غلب عليها الاختلال.

أما علاقة الإنسان المسلم بالبيئة فهى علاقة مثالية لكون القرآن الكريم والسنة المطهرة هما اللذان نظما هذه العلاقة. حيث نجد أن العلاقة التى نظمها الإسلام بين الإنسان وبيئته، وما تحتويه من موجودات حية وغير حية هى علاقة مودة ومحبة واحترام أو علاقة تآلف وتسخير وانتفاع. فلا قسر أو إرهاب ولا بغضاء ولا صراع ولا عداء ، بل ولا إسراف فى استخدام محتويات هذه البيئة، فالإسلام يدعو إلى التوسط والاعتدال فى استخدام الإنسان لمحتويات كونه الفسيح.

لقد أتى الإسلام بالحل الأمثل فى علاقة الإنسان بالبيئة ليضمن للبشرية خيرى الدنيا والآخرة ، ويضبط تعامل الناس مع بيئتهم ، ويرشد سلوكهم تجاهها. هذه العلاقة هى توازن واتساق وتفاعل إيجابى، بريئة من الاختلال والتطرف، فالمسلم لا يعبد البيئة لأنه يعلم أنها مخلوقة مثله، ولا يتأله عليها لأنه يؤمن أنه مخلوق مثلها، ولا يعتزلها لأنه يعلم أنها مخلوقة من أجله، وأنه لا غنى له عنها فى حياته.

هذه العلاقة الحميمة قد صاغها الإسلام كأحسن ما تكون عليه علاقة اثنين لا غنى لأحدهما عن الآخر، وحمى بذلك العقل المسلم من الخوض فى متاهات فلسفية عقيمة، ومن الشطط فى أفكاره وسلوكياته[2].

---

(١) شوقى أحمد - التنمية والبيئة دراسة مقارنة - دعوة الحق - العدد ١٣٧ - مكة المكرمة - رابطة العالم الإسلامى - ١٤١٤ هـ- ص ٣٠.

(٢) عبدالرحيم الرفاعى بكرة - أسس التربية البيئية فى الإسلام - الرياض - إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ١٤١٣ هـ- ص ٥٤.

وتقوم علاقة الإنسان ببيئته فى الإسلام على أساس أنه جزء منها، ومكون من مكوناتها ، وكل من الإنسان والبيئة مخلوق بقدرة الله لغاية محددة، ومصير محتوم.

ولذلك فلا تباين بينهما ولا نشاز فى علاقتهما . وقد خلق الله الأرض بسهولها وجبالها وصحاريها ووديانها وبحارها وأنهارها وما على سطحها وما فى باطنها من أجل الإنسان ، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا..﴿٢٩﴾﴾[البقرة].

وأنه تعالى جعل ما فيها من الكائنات لمنفعة الإنسان، وشجع الناس على طلب الرزق، واستخراج كنوز هذه الأرض بعد أن ذللها لهم، وجعلها منقادة لما يريدونه منها.

ونظراً لأن الإنسان لديه نوازع النقص والقصور ، تلبية للجانب المادى فى تكوينه ، فقد ينحرف بسلوكه وممارساته، عما هو مقدر فى رسالته، فقد يأتى من السلوكيات البيئية ما قد يكون من نتائجها القضاء على مقومات الحياة له ولغيره من المخلوقات أو الاضرار بها. ولذا لابد أن تستند علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية على دعائم ومقومات تحدد خطواته ، وتضبط ممارساته، وتحد من طيشه ونزعاته، فى إطار من الفهم الصحيح والوعى الدقيق لدوره فى هذا الوجود. والإسلام هو خاتم الرسالات الربانية إلى البشرية، وقد تضمن قواعد وضوابط لسلوكيات البشر تجاه بيئتهم التى يعيشون فيها كى تتحقق العلاقة المتوازنة والسوية بين الإنسان وبيئته لتستمر الحياة كما قدر الله الأرض وما عليها. فعلاقة الإنسان بالبيئة كما يصورها الإسلام علاقة حميمة، لأن البيئة مخلوقة من أجل ذلك الإنسان، كل ما فيها مسخر له، وهى كافية لأبناء الأرض جميعاً إن أحسنوا إدارة أمورهم ، فالاستخلاف يعنى أن الإنسان وصى على هذه البيئة، فهو مستخلف على إدارتها دون إفساد فى الأرض.

وجملة ما نصل إليه :

أن الإنسان خليفة الله فى الأرض، ووصى على البيئة وليس مالكاً لها، فعليه من هذا المنطلق أن يأخذ منها بقدر الحاجة، مع أداء حق هذه النعمة وشكرها بالمحافظة عليها، وبإعطاء حق الله فيها للمحتاجين.

فشكر النعمة عامل من عوامل استدامتها، وكفران النعمة مدعاة لزوالها ، قال الله تعالى:

﴿ . . لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم].

ويجب أن تكون علاقة الإنسان ببيئيه علاقة حسنة، وتكون تصرفاته مع عناصر البيئة حكيمة ومعتدلة، وأن يلتزم جادة الصواب فى تصرفاته وممارساته تجاه البيئة فيكون معمراً لها لا مدمراً لمكوناتها.

فعلاقة الإنسان بالبيئة ليس كما يميل إليه هوى بعض الناس، ولكنه مضبوط بسنن لا يستطيع الإنسان خرقها[1].

ولعل ما تعانيه البشرية اليوم من مشكلات بيئية ، تكشف عن وجود خلل فى العلاقة بين الإنسان والبيئة، نتيجة غياب الوعى البيئى والتربية، وتجاهلها توجيهات الإسلام التى ينبغى أن تحكم سلوكيات وتصرفات الأفراد والجماعات تجاه البيئة.

فالإنسان المعاصر بسلوكياته غير الإسلامية تجاه البيئة يعتبر مسئولاً مسئولية كاملة عما أصاب العلاقة بين الإنسان والبيئة من خلل وتدهور واستنزاف لموارد البيئة التى أنعم الله بها على البشرية.

ولعل دعوة الإسلام إلى حسن تعامل الإنسان مع بيئته لواحدة من شمولية هذا الدين الذى دعا إلى كل خير، ونهى عن كل شر.

---

(١) على راضى أبو زريق - الإنسان والبيئة - دعوة الحق - العدد ١٥٩ - مكة المكرمة - رابطة العالم الإسلامى - ١٤١٦هـ - ص ٨٨ ، ٨٩.

فقد حذر الإسلام من إحداث أى تغيير بمكونات البيئة، وهى من أنعم الله تعالى وتوعد من يهن نعمة الله بالعقاب الشديد.

إن من يدرس علاقة الإنسان بالبيئة فى الإسلام يخرج بما يلى:

١ - إن كل ما فى البيئة مخلوق من أجل الإنسان مسخر له، لجعل حياته سهلة ورزقه ميسراً.

٢ - البيئة الأرضية جزء من الكون كله ، وهى بيئة متوازنة، خلق كل شىء فيها بحساب دقيق، وعلى الإنسان أن يحافظ على توازنها باستمرار ، ولا يتسبب فى خللها أو تلوثها كى لا تضطرب أمورها فيدفع هو الثمن. . أو تقل منافع عطائها بسبب التلوث.

٣ - الأرض كافية للناس كونها مصدر رزق ومكان وسكن، إذا أحسنوا إدارة أمورها.

٤ - ليس من الحكمة أن يهدر الإنسان ما خلق الله له من طاقات ومصادر طبيعية، أو يستنزفها ، فالمصادر الطبيعية يمكن أن تنضب إذا لم يحافظ عليها، لذا عليه أن يحسن استغلالها، فالإسراف والتبذير فى استعمالات الطاقات والموارد البيئية حرام فى الإسلام.

٥ - يجب المحافظة على كل نوع نباتى أو حيوانى فى البيئة، وحمايته من الانقراض ، حتى لو لم تكن الفائدة من وجوده معروفة الآن، فما خلق الله من شىء عبثاً.

٦ - الإنسان جزء من بيئته، ويستطيع أن يكون سبباً فى سعادة محيطه الإنسانى، كما يستطيع أن يكون سبباً فى شقاء البشر.

وفى الحالة الأولى يكون له نعيم الدارين، وفى الثانية عذاب الدنيا والآخرة[1]. إن هذه العلاقة التى أوضحها الإسلام يمكنها أن تحدد جدوى

---

(١) على راضى أبو زريق : المرجع السابق ، ص ٨٨ - ٨٩.

تعايش الإنسان من البيئة فى كل زمان ومكان، وهى أيضاً التى تجعل الإنسان يعيش فى الوضع المناسب على هذه الأرض، وهذا ما يجب أن تقوم به التربية.

وإذا كنا قد تناولنا كيفية حفاظ الإنسان على البيئة، فإننا فى حاجة لرصد كيفية تحديد المشكلة البيئية، وكيفية مواجهتها والتغلب عليها، وهذا ما سنفصله فى المبحث الثالث بحوله تعالى.

obeikandl.com

المبحث الثالث

تحديد المشكلة البيئية فى المنظور الإسلامى :

ماذا نعنى بالمشكلة البيئية على وجه التحديد؟ لننظر أولاً فى كلمة مشكلة فلهذه الكلمة معنيان : فقد تعنى ظاهرة يكتنفها الغموض وتحتاج إلى تفسير. . وقد تعنى وجود حالة مرضية يعانى منها الإنسان، وتحتاج إلى علاج.

المشكلة إذن إما مشكلة بحثية (Research Problem) تدفع إلى البحث من أجل الكشف عما يحيط بها من غموض.

أو مشكلة مرضية (Pathoiogical Problem) يعانى منها الإنسان ، وتحتاج إلى علاج.

فى المعنى الأول يقال (أشكل) الأمر أى ألتبس واكتنفه الغموض . وترجمت بهذا المعنى الكلمة الفرنسية (Probleme) وترجمت فى علم الرياضيات إلى مسألة، وفى علوم القانون إلى قضية، وفى العلوم الاجتماعية ترجمت إلى مشكلة، وليس هذا هو المعنى المقصود بالمشكلة البيئية.

وعندما يتحدث علماء البيئة عن مشكلة التلوث أو مشكلة سرعة نضوب الموارد الطبيعية فإنهم يقصدون المعنى المرضى الاختلالى لكلمة المشكلة.

وفى دراستنا الحالية نسير على نفس النهج، إلا أننا نفرق - وكما أوضحنا فى مناقشاتنا السابقة - بين تغير احتكاكى مرغوب فيه، وتلوث يشكل خطورة بالنسبة للإنسان، وهذه التفرقة قد أخذ بها أيضاً بعض علماء البيئة فى تقسيمهم للتلوث من حيث درجة خطورته: إلى تلوث طبيعى مرغوب فيه، وتلوث خطر، وأخيراً تلوث مدمر أو خطر جداً.

فالتغير الاحتكاكى والتلوث الذى يقع فى نطاق القدرة الاستيعابية للطبيعة لا يشكلان أى مشكلة بيئية. أما التلوث الخطر أو التلوث المدمر فإنه يشكل

مشكلة بيئية والمشكلة البيئية تشير إلى ظاهرة يكتنفها الغموض وتحتاج إلى تفسير، ومن الأمثلة على ذلك نزول المطر فى منطقة جدباء، أو قلة الأوكسچين فوق المرتفعات وقمم الجبال، أو ظاهرة تولد غاز الأوزون فى طبقات الجو العليا، هذه كلها مشكلات بحثية تدعو إلى الدراسة والتمحيص، وليست مشكلات مرضية تحتاج إلى علاج.

والآن ننظر فى كلمة البيئة كى يتسنى لنا بعد ذلك أن نحدد وبدقة مفهوم المشكلة البيئية.

إن البيئة الطبيعية مسخرة للإنسان وتشكل نظاماً بيئياً متوازناً يعمل على استمرار الحياة من خلال السلسلة الغذائية، ولكن بعض علماء الاجتماع يذهبون مذهباً آخر ففى الدراسات الاجتماعية المعاصرة تيار فكرى يطلق عليه اسم المدرسة البيئية (الإيكولوچية) يربط بين الإنسان من جانب، والظروف الحيوية (البيولوچية) والجغرافية من جانب آخر.

وهذه المدرسة يمكن اعتبارها امتداداً للنزعة الحتمية المتمثلة فى الداروينية الاجتماعية ، فهى توسع من نطاق العوامل الحتمية التى تفرض نفسها على الإنسان، لتشمل الظروف البيئية والجغرافية إلى جانب العوامل البيولوچية[1].

هذا الاتجاه لا يعترف بتسخير البيئة الطبيعية للإنسان، الأمر الذى دفع الكثيرين من علماء الاقتصاد إلى الزعم بأن البيئة الطبيعية شحيحة بمواردها التى لا تكفى لإشباع رغبات الإنسان.

وينطلق علماء الاجتماع والاقتصاد فى موقفهم التشاؤمى من البيئة الطبيعية من النظرة الفلسفية التى تقيم علاقة الإنسان بالبيئة على الصراع والتناقض والعداء، وتدعو الإنسان إلى قهر الطبيعة وإذلالها للحصول منها على أقصى ما يمكن من موارد لإشباع أقصى ما يمكن من الرغبات الإنسانية.

---

(١) نيقولا تيماشيف - نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها - ترجمة د. محمد عودة - دار المعارف - مصر - الطبعة السابعة - ١٩٨٣م - ص ٣١٤.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذه النظرة الفلسفية وما أسفرت عنه من اندفاع الإنسان فى استغلال الموارد الطبيعية تعتبر مسئولة بدرجة كبيرة عن التلوث ، وعن سرعة نضوب بعض تلك الموارد.

ومما يعمق من هذا الاتجاه المدمر للبيئة الطبيعية : أن علماء الاجتماع يقيمون تفرقتهم بين الواقع الاجتماعى من جانب والواقع المادى والعضوى من جانب آخر، على أساس أن الأول قابل للفهم ويمكن تفسيره ، بينما الواقع الثانى غير قابل للفهم ولا يمكن تفسيره.

ويذهب سوروكين : إلى أن الواقع الاجتماعى يسمو على كل من الواقع الطبيعى الفيزيائى والواقع العضوى الحيوى، لأنه يحتوى على عناصر رمزية تتمثل فى المعانى والقيم والمعايير.

ويقول ماكس فيبر : إن الظاهرة الاجتماعية قابلة للفهم المتمثل فى المعانى والمقاصد الذاتية للأشخاص، بينما لا تستطيع ذلك بالنسبة للظاهرة الطبيعية.

ويقول ماكفير : إن الوقائع الاجتماعية، مثل حدوث إضـــراب العمال، أو تحديد سعر سلعة معينة، هى وقائع مدركة حيث نستطيع أن نعرف الدوافع التى أدت بالإنسان إلى التصرف على نحو معين بينما لا نستطيع أن نفهم مثلا: لماذا يسقط المطر؟

ومن ناحية أخرى: فإن ما يذهب إليه علماء الاجتماع يتصادم مع موقف الإسلام من قضية فهم حركة المسخرات فى العالم الطبيعى حيث ينزل المطر من السماء بمشيئة الله لكى ينبت الثمار غذاء للإنسان والحيوان.

يقول جلت قدرته: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[السجدة].

هناك غاية مستهدفة وبالتالى فإن حركة الظواهر والأشياء فى البيئة الطبيعية أو العالم غير المكلف ليست عشوائية، وإنما هى حركة هادفة يمكن فهمها، وإضفاء المعنى عليها.

صحيح أن الظواهر والأشياء التى تتكون منها البيئة الطبيعة، لا وعى لها ولا إرادة، إلا أنها تخضع فى تكوينها وحركتها لقوانين وسنن كونية تحكمها الإرادة الإلهية.

خلاصة القول : علينا أن ننظر إلى البيئة الطبيعية بكل ما فيها من ظواهر وأشياء على أساس أنها مسخرة للإنسان، لكى تزوده بمقومات الحياة، فتعينه بذلك على أداء مهمته الاستخلافية بإعمار الأرض وتحقيق الهدف من خلقه، وهو عبادة الله سبحانه وتعالى. وفى ضوء هذا المفهوم الإسلامى تعرف المشكلة البيئية بأنها اختلال فى النظام البيئى يجعله - أو يهدد بجعله - غير قادر على القيام بمهمته التسخيرية للإنسان على الوجه الأكمل.

وعلى ذلك قد تكون المشكلة البيئية تلوثاً فى الهواء، أو تلوثاً فى الماء، أو فى التربة، وقد تكون استنزافاً للطاقة، وقد تكون خللا فى السلسلة الغذائية، وقد تكون خللا فى النظام البيئى بصورة من الصور. ولكن لا بد من توافر شرط أساسى آخر وهو أن يبلغ الخلل - أو التلوث- درجة معينة بحيث يعانى منه الإنسان.

ومعنى ذلك أننا نستبعد من نطاق المشكلة البيئية التغيرات الاحتكاكية والتلوث الذى لايتجاوز قدرة الطبيعية على استيعابه.

وقد يكون من المفيد أن نورد فيما يلى تعريفاً للمشكلة البيئية على أنها حدوث خلل أو تدهور فى النظام البيئى ينجم عنه أخطار بيئية تضر بكل مظاهر الحياة على سطح الأرض سواء كان هذا الخطر بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة[1].

---

(١) زين الدين عبدالمقصود - البيئة والإنسان - مرجع سابق - ص ١٨.

ويضيف الدكتور زين الدين إلى ذلك قوله : ومعنى المشكلة لا يقتصر على حدوثها، وإنما يمتد ليشمل احتمالات حدوث الخلل أو التدهور.

وعلى سبيل المثال: تزايد السكان بمعدل أكبر من معدل تزايد إنتاج الغذاء يهدد بوقوع خلل فى المستقبل. فهذه البيئة تعانى إذن من وجود مشكلة أو أنها مستقبلية.

ونحن نلاحظ أن هذا التعريف للمشكلة البيئية يخلو من الإشارة إلى العمل التسخيرى والهادف للنظام البيئى.. والذى يتأثر بطريقة سلبية بحدوث الخلل.

ومن هنا يتفوق تعريفنا المقترح للمشكلة البيئية الذى ينطلق من منطلقات إسلامية، تؤكد وجود الغاية من خلق الطبيعة (الكون) وارتباط تلك الغاية بمهمة الإنسان فى الحياة والهدف من خلقه.

فالطبيعة مسخرة بأمر الله للإنسان لتزوده بمقومات الحياة، فتعينه بذلك على أداء عمله الاستخلافى فى الأرض.

وثمة ملاحظة أخرى نبديها على ما ورد بالتعريف السابق الذى نظر إلى تزايد السكان بمعدل أكبر من معدل تزايد إنتاج الغذاء على أنه يمثل مشكلة بيئية بمعناها المرضى الاختلالى.

بينما الواقع الذى نراه - أن هذه مشكلة احتكاكية - تدفع الإنسان إلى البحث عن مصادر جديدة لإنتاج الغذاء كاستصلاح الأراضى - ومحاولة البحث عن مصادر للمياه ، فهى ليست مشكلة بيئية مرضية.

إن عدم توافر الماء فى الصحراء لا يعتبر بذاته مشكلة بيئية - أى مشكلة مرضية يعانى منها الإنسان - وإنما هو من الأمور الهيكلية التى خلق الله عليها الأرض.

إن البيئة الصحراوية تقل فيها الكثافة السكانية ويحصل السكان على حاجاتهم وحاجات ماشيتهم من الماء، من المياه الجوفية، والآبار، والأمطار القليلة التى تسقط بين الحين والآخر.

ولكن عندما يمتد العمران ويتزايد عدد السكان فى منطقة صحراوية تصبح ندرة الماء مشكلة، ولكنها ليست مشكلة بيئية اختلالية.

إن ندرة الماء - مع تزايد الحاجة إليه والرغبة فيه كنتيجة لزحف العمران تدفع الإنسان إلى البحث عن الماء والعمل على توفيره.

فندرة الماء هنا : ندرة احتكاكية وليست اختلالية، وهى التى تعتبر حافزاً للإنسان على التفكير والبحث والنشاط للتغلب عليها، وقد يكفى أن ننظر إلى مناطق صحراوية كالجزيرة العربية.

وقد أصبحت الآن عامرة بالسكان بعد أن أمكن توفير المياه لتغطية احتياجات ملايين من البشر، بأساليب متعددة مثل تحلية مياه البحر، واستخراج المياه الجوفية، حيث توجد الصخور الرسوبية التى تختزن المياه فى فراغاتها وتوجد بعض مناطق من الأرض تتعرض للهزات الأرضية بين الحين والحين -كما هو الحال فى اليابان- وقد دفع ذلك إلى التفكير والبحث لتجنب مخاطر الزلازل ، وبالفعل تمكن الإنسان من بناء مساكن؛ تمتص الهزات الأرضية بدرجة معينة.

وفى البيئات الجبلية وحيث تكون درجة انحدار المرتفعات شديدة، تتزايد سرعة انسياب مياه الأمطار الساقطة على تلك البيئات، ويصاحب ذلك جرف شديد للتربة يؤدى إلى تلوثها أو تصحرها.

ولكن مع ذلك، لا نقول أن هذه مشكلة بيئية اختلالية فهى مسألة ترتبط بطبقات الأرض، ولكى تكون دافعاً للإنسان على البحث والتطوير فى مساره الحضارى.

فقد استطاع استغلال الظروف البيئية فقام بتحويل سفوح الجبال إلى مدرجات أو مصاطب ليوقف انجراف التربة[1].

---

(١) البيئة والإنسان - مرجع سابق - ص ٢٦.

وتمكن بذلك من استخدام مياه الأمطار فى الزراعة، لقد خلق الله الكون -وكل شىء فيه- على أحسن ما يكون موافقاً للغاية من خلقه، ومن ثم لاينبغى أن نصف شيئاً من خلقه باختلال، وإنما الإنسان وحده هو المصدر المباشر أو غير المباشر للاختلال.

يقول تعالى: ﴿ .. الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[طه].

ويقول: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ .. ﴿٧﴾ ﴾[السجدة].

ويقول: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[الأعلى].

بيئة من صنع الإنسان:

وهى الأنظمة التى وضعها الإنسان، وتضم الأنظمة الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية والبحثية، والتقنية، والنفسية، والاقتصادية، والصحية، والتعليمية، والتربوية.

ولقد شهد العصر الحديث تعدداً وتنوعاً ملحوظاً فى مشكلات البيئة، فبعد أن كانت المشكلة الأساسية هى مشكلة التلوث، وما نتج عنها من أضرار بالغة الأثر فى المجتمع الإنسانى، أضيفت مشكلات جديدة شملت جوانب عديدة من جوانب الحياة.

ولا تقتصر مشكلات البيئة على مجتمع دون آخر، بل تمتد لتشمل كل الدول وعلى جميع مستويات النمو الاقتصادى والاجتماعى.

فهناك مشكلات المجتمع الصناعى والبلاد المتقدمة، وهى بلاشك تؤثر تأثيراً سلبياً بطريق مباشر أو غير مباشر فى بيئة الإنسان فى الدول النامية. وأقرب مثل لهذا مشكلة نقصان طبقة الأوزون، فإنها وإن كانت نابعة أصلاً من الدول الصناعية المتقدمة، إلا أن الآثار الضارة الناجمة عنها سوف تمتد لتشمل الدول النامية، بالإضافة إلى الدول التى تسببت فى حدوث المشكلة[1].

---

(١) عز الدين الدنشاوى، صادق أحمد طه - سموم البيئة (أخطار تلوث الهواء والمـــاء والغـــذاء) - الرياض - دار المريخ - ب.ت - ص٢١.

وهناك أيضاً مشكلات الدول النامية، وتشمل انخفاض مستوى المعيشة وسوء التغذية، وانتشار الأمراض وزيادة الكثافة السكانية ، بالإضافة إلى ضعف خصوبة التربة، وانخفاض إنتاج العامل بسبب المرض وسوء التغذية وتدنى مستواه الثقافى والتعليمى.

ويمكن تقسيم أبرز مشكلات البيئة إلى الأقسام التالية:

(١) تناقص المصادر الطبيعية :

شهد العصر الحديث تناقصاً ملموساً فى المصادر الطبيعية لكثير من الدول، وذلك على أثر تدهور حالة الأراضى الصالحة للزراعة، واستنفاد المصادر الطبيعية، وضعف خصوبة التربة الزراعية، بالإضافة إلى ماسببه تلوث البيئة من تناقص فى النباتات والكائنات البرية والبحرية.

ولعل مشكلة نقصان طبقة الأوزون تعد من أبرز المشكلات التى أدت وسوف تؤدى إلى هذا التناقص، إذ لم تعالج معالجة سريعة وحاسمة، وهذه نماذج من هذه المشكلات.

أ - التربة :

لقد تعرضت التربة الزراعية لعدة عوامل أثرت فى جودتها وصلاحيتها للزراعة، وبالتالى فى مقدار ما تنتجه من محاصيل، ومن أهم هذه العوامل ظاهرة التصحر وزيادة ملوحة التربة، واستنفاد العناصر الطبيعية بها، بالإضافة إلى الإسراف فى استخدام المبيدات الحشرية، وإلقاء المخلفات الكيميائية فى التربة، أو فى المياه المجاورة لها.

ب- النبات والحيوان :

أدى قطع الأشجار والنباتات واستخدامها كمصدر للطاقة إلى تناقص ملحوظ فى الغابات والثروة النباتية، ولقد تناقص عدد الحيوانات البرية، وانقراض بعض نوعيات منها، بسبب إطلاق صيد الحيوانات البرية بدون قيود أو شروط.

ولقد كان الدافع الأول فى الإقبال على صيد هذه الحيوانات هو الربح الطائل الذى يدره بيع هذه الحيوانات، أو الأشياء الثمينة منها مثل الفراء والعاج والجلود.

جـ- المـــاء :

من أبرز مشكلات البيئة التى تؤدى إلى تناقص المصادر الطبيعية قلة المياه الصالحة للشرب، والزراعة، ولأغراض الصناعة، وذلك بسبب الزيادة المضطردة فى تلوث المياه السطحية والجوفية.

ولقد أدى تلوث مياه البحار والأنهار إلى نقصان إنتاجية الكائنات البحرية، ومن أمثلة هذا التلوث الأمطار الحمضية الملوثة بمخلفات المصانع والأنشطة الأخرى، والتى يترتب على سقوطها فى البحيرات موت الأسماك، وتقل إنتاجية الكائنات البحرية أيضاً بسبب نقصان طبقة الأوزون، الذى يترتب عليه نفاذ الأشعة البنفسجية الضارة إلى البحار، حيث تنمو النباتات البحرية التى تعتبر غذاءً أساسياً للأحياء المائية.

د - الهـــواء :

يعتبر الهواء مصدراً طبيعياً أساسياً لنمو وحياة النباتات والحيوان والإنسان، ولقد أدى تلوثه بالغبار والأبخرة السامة إلى رداءة الهواء الضرورى لحياة النباتات والحيوانات، مما يترتب عليه نقصان فى المحاصيل الزراعية والحيوانات.

هـ- مخلفات الصناعة :

تعتبر مخلفات الصناعة من مواد كميائية ضارة من أهم العوامل التى تؤدى إلى نقص الموارد الطبيعية، حيث تؤدى إلى تلوث مياه الشرب والزراعة والتربة.

و - نقصان طبقة الأوزون :

يؤثر نقصان سمك طبقة الأوزون تأثيراً سلبياً فى إنتاجية المحاصيل الزراعية والكائنات البحرية بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو.

وسوف نناقش بمشيئة الله أضرار نقص طبقة الأوزون بشيء من التفصيل فى الفصل الثالث، وذلك فى المبحث السادس منه.

(٢) سوء التغذية :

يعتبر سوء التغذية من أخطر مشكلات البيئة، حيث ينجم عنها إصابة الإنسان بأمراض عضوية ونفسية ووراثية ، كما تؤدى إلى مضاعفات الحمل وتشوهات وأمراض الأجنة، وانخفاض معدل أوزان المواليد.

ويسبب سوء التغذية أيضاً قلة الإنتاج البدنى والفكرى، وتدنى مقاومة الإنسان للأمراض ، ومن أسباب سوء التغذية الفقر والتشرد والمجاعات وقلة المصادر الغذائية والافتقار إلى العناصر الحيوية، مثل البروتينات والفيتامينات والأملاح، بسبب تدهور حالة التربة الزراعية والعوامل البيئية الأخرى التى تؤثر فى نمو النباتات..

(٣) زيادة عدد السكان :

أدت مشكلة التضخم السكانى فى كثير من دول العالم، وبخاصة العالم الثالث، إلى زيادة الضغوط على الموارد الطبيعية لتلبية حاجة الناس من متطلبات غذائية ، وضروريات حياتية، ولقد أدى هذا بدوره إلى إيجاد العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والسكانية والتعليمية.

ولقد تسبب التضخم السكانى أيضاً فى تزايد تقلص المساحة الزراعية نتيجة للزحف العمرانى، وبناء المساكن والمصانع على حساب الرقعة الزراعية.

(٤) مشكلات المدن :

من أبرز مشكلات المدن الزحام والضوضاء ، وزيادة السكان وما يترتب عليها من اختناقات فى وسائل المواصلات ومشكلات فى الإسكان والمرافق العامة والنظافة والتعليم والبناء والعناية بتجميل المدينة.

وبالرغم من أن الأجهزة المختصة بحماية البيئة قد أولت مشكلات المدينة عناية فائقة، وبذلت أقصى الجهود لمعالجتها والتغلب عليها، فإن الكثير من المدن المزدحمة فى العالم ما زالت تشكو من الزحام والضوضاء.

بالإضافة إلى ارتفاع نسبة المواد الملوثة للهواء، والناتجة عن عادم السيارات ووسائل النقل الأخرى، وزيادة عدد المصانع المقامة فى المدن أو الأماكن المجاورة لها ويترتب على ارتفاع نسبة المواد الملوثة لهواء المدينة وزيادة نسبة الإصابة بأمراض الجهاز التنفسى وأمراض القلب والشرايين، بالإضافة إلى الأمراض الناجمة عن الضوضاء.

(٥) الأمراض :

تعتبر الأمراض عبئا ثقيلاً على بيئة الإنسان، نظراً لما تسببه من تدهور فى صحة الفرد البدنية والنفسية والفكرية، بالإضافة إلى ما تفرضه من مشكلات اقتصادية تتمثل فى قلة الإنتاج وتكاليف العلاج.

وربما أدى علاج المرض إلى حدوث مشكلات أخرى تمثل فى استحداث أمراض ناجمة عن غش الأدوية ، أو سوء استعمالها.

ويؤدى انتشار الأمراض والأوبئة إلى زيادة التلوث البيئى بطريق مباشر بسبب تلوث الغذاء بالميكروبات وسمومها، أو بطريق غير مباشر بسبب تلوث الغذاء والماء والهواء بالمواد الكميائية التى تستخدم فى مقاومة الحشرات والحيوانات التى تنقل الأمراض.

(٦) التلوث البيئى :

يعتبر تلوث البيئة من أبرز قضايا العصر الحديث، ومن أهم المشكلات التى أولتها دول كثيرة اهتماماً بالغاً، كما عقد من أجلها العديد من المؤتمرات والندوات على الصعيدين الدولى والمحلى.

ولقد كثفت الأمم المتحدة كل الطاقات المتاحة لدراسة تلوث البيئة وطرق التغلب على مشكلاتها، وانبثق من هيئة الأمم المتحدة منظمة تختص بشئون البيئة ، وهى المنظمة التى أطلق عليها اسم برنامج الأمم المتحدة للبيئة.

وانطلاقا من خطورة هذه المشكلة أدرج علم تلوث البيئة ضمن برامج التعليم التى تدرس فى المدارس والكليات المعاهد كمادة مستقلة بذاتها وضمن برامج علم السموم.

وتجدر الإشارة إلى أن مشكلة تلوث البيئة قد تفاقمت فى السنوات الأخيرة نظراً لزيادة وجود الغازات السامة فى الهواء ومخلفات المصانع والحرائق وعوادم السيارات والمركبات الأخرى والبيوت الزجاجية الزراعية (الصوبات) . ولقد زادت نسبة تلوث الهواء والماء والغذاء بسبب استعمال المبيدات الحشرية فى الحقول والمنازل والشوارع وأماكن العمل.

ويشير التقرير الذى أعدته الأكاديمية الملكية للعلوم بانجلترا عام ١٩٧٣م إلى أن هناك تزايداً مستمراً فى عدد المواد الكيميائية الملوثة للبيئة، حيث يكتشف حوالى ربع مليون مركب جديد كل عام، يستعمل منها حوالى ٥٠٠ مركباً فى الأغراض الصناعية والزراعية والمعملية، هذا بالإضافة إلى وجود حوالى مليون من المواد شائعة الاستعمال.

ولا يقتصر خطورة التلوث البيئى على وجود هذا العدد الضخم من المواد الكيميائية، إنما يضاف إليها ملوثات من نوع آخر مثل الغبار الذرى والعناصر المشعة والميكروبات وسمومها، علاوة على السموم التى يقدم عليها الإنسان بمحض إرادته، وهى المخدرات والخمور ودخان التبغ.

ويسبب التلوث البيئى نشوء مشكلات تتعلق بصحة الإنسان وسلامته، حيث تزداد نسبة الإصابة بالأمراض التى يطلق عليها اسم أمراض التلوث البيئى. مثل أمراض الجهاز التنفسى وأمراض العين والأمراض الجلدية وأمراض القلب والشرايين وأمراض الأعصاب.

ومن أخطار التلوث البيئى أنه يعتبر من أهم العوامل التى تؤدى إلى حدوث تشوهات الأجنة وزيادة نسبة الأمراض الوراثية، وسوف نتحدث بشىء من التفصيل عن أخطار التلوث البيئى فى مبحث مستقل فى الفصل الثالث، فى المبحث الأول منه.

(٧) مشكلات أخرى:

بالإضافة إلى ما تقدم من مشكلات بيئية، وهى المشكلات التى تمثل الجزء الأكبر من تصدع الكيان البيئى، فإن هناك مشكلات أخرى مثل التخلص من نفايات المصانع ونفايات العناصر المشعة، وقطع الأشجار والنباتات الواقية لإنشاء الطرق والمبانى، وعدم التكافل الاجتماعى للبيئة بسبب الهجرة، بالإضافة إلى مشكلات الأمهات والعاملات ونقصان طبقة الأوزون، وما يترتب عليها من أمراض وأخطار وتغيرات جوية.

وهناك مشكلة المخدرات التى وإن كانت تتعلق بانحراف محدود من الأفراد فى كل دولة إلا أنها تصيب المجتمع بأسره، بسبب ما يترتب عليها من أمراض وقضايا اجتماعية واقتصادية.

وتحولاً من رصد بعض المشكلات البيئية وتصنيفها، وتحديدها من قبل، فإن ثمة حاجة إلى استكمال المعالجة بيان شمولاً نظرة الإسلام فى حماية البيئة مما تعرض له فى المبحث التالى.

المبحث الرابع

حماية البيئة فى الإسلام :

أ - تعريف الإنسان بالبيئة ليحافظ عليها :

ويتمثل هذا فى العناية بالبيئة ابتداء من إظهار خصائصها للإنسان لتكون محل اهتمامه ، وليتعرف على حاجته إليها وعلاقته بها، ضرورة حمايته لها ومن هذه الخصائص:

١ - خصيصة التسخير التى جعلت البيئة بما فيها من مخلوقات عظيمة، طيعة للإنسان ومتلائمة مع تحقيق مصالحه فى الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[الجاثية].

٢ - خصيصة التوازن التى أقام الله الخلق عليها قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[القمر]. فالماء الذى هو عنصر الحياة مثلا أنزله الله تعالى بقدر.

قال تعالى﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[المؤمنون].

٣ - خصيصة الحكمة وراء خلق كل عناصر البيئة على تعددها وتنوعها، والتى قد تكون ظاهرة مشهودة أو باطنة خفية على كثير من الناس.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٣٨﴾ ﴾[الأنعام].

قال ابن عطية : المعنى فى هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة فى أنواع مخلوقاته ، وقد أحال إلى الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير قد حصرت جميع الحيوان، وهى أمم أى جماعات مماثلة للناس فى الخلق والرزق والحياة والموت والحشر فليعتبر الإنسان.

ومن تلك الأمم التى قد يجهل كثير من الناس حكمة خلقها أمة الكلاب وعليها يقاس جميع الحيوانات والحشرات والنباتات ولا سيما التى يتأذى الناس منها.

يقول ﷺ مقرراً حكمة خلق الكلاب:« **لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم**»(١).

ويبين أبو سليمان الخطابى هذا المعنى فيقول: كره إفناء أمة من الأمم، وإعدام جيل من الخلق حتى يأتى عليه كله، فلا يبقى منه باقية، لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة وضرب من المصلحة(٢).

ومن تلك المخلوقات الكائنات الدقيقة التى تسهم مساهمة فعالة فى إنتاج الطعام والشراب والملبس، فإن منها ما يعمل على تثبيت النيتروجين فى النباتات البقولية، وفى تحليل بقايا الكائنات الميتة، وزيادة خصوبة الأرض، وتقوم الحشرات بعملية تلقيح النباتات.

٤ - خصيصة المتاع الذى يتناوله الإنسان من عناصر بيئته المختلفة فهى السلة الكبيرة التى فى حياته قال تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾** ﴾[عبس].

---

(١) رواه أبو داود رقم ٢٨٤ فى باب اتخاذ الكلاب للصيد.

(٢) أبو سليمان الخطابى - معالم السنن - مكتبة السنة المحمدية - القاهرة - ٤/ ١٣٢.

وقال تعالى: ﴿الَّذي جعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ منَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا به أَزْوَاجاً مّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[طه].

وقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ جعَلَ لَكُم مّنْ بُيُوتكُمْ سكَنًا وَجعَلَ لَكُم مّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتكُمْ وَمنْ أَصْوَافهَا وَأَوْبَارهَا وَأَشْعَارهَا أَثَاثًا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حين ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جعَلَ لَكُم مّمَّا خَلَقَ ظلالاً وَجعَلَ لَكُم مّنَ الْجبَال أَكْنَانًا وَجعَلَ لَكُمْ سَرَابيلَ تَقيكُمُ الْحرَّ وَسَرَابيلَ تَقيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلكَ يُتمُّ نعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلمُونَ ﴿٨١﴾﴾[النحل].

٥ - خصيصة الجمال التى هى مظهر من مظاهر الإبداع والإحكام فى خلق الله تعالى، والتى ينعم الإنسان بمنظرها الخلاب، وتنشرح بها نفسه.

قال تعالى ملفتاً الانتباه إليها: ﴿وَهُوَ الَّذي أَنزَلَ منَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا به نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا منْهُ خَضرًا نُّخْرجُ منْهُ حَبًّا مُّتَرَاكبًا وَمنَ النَّخْلِ من طَلْعهَا قنْوَانٌ دَانيَةٌ وَجَنَّاتٍ مّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبهًا وَغَيْرَ مُتَشَابهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرهِ إِذَا أَثْمَرَ وَينْعه إِنَّ فِي ذَلكُمْ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يُؤْمنُونَ ﴿٩٩﴾﴾[الأنعام].

قال تعالى ممتنا بخصيصة المنفعة والجمال: ﴿الأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فيهَا دِفْءٌ وَمَنَافعُ وَمنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فيهَا جَمَالٌ حينَ تُريحُونَ وَحينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْملُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالغيه إِلاَّ بشقِّ الأَنفُسِ إِنَّ ربَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبغَالَ وَالْحَميرَ لتَرْكَبُوهَا وَزينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[النحل].

ولاريب أن هذه الخصائص وغيرها تستحث متأملها على المحافظة على فطرة البيئة، والاهتمام بما ينميها، ويضاعف منافعها، ويقيها الفساد أو الاتلاف، وقد ارتبطت بها حياته، وعرف قيمتها ومنافعها له.

ويتحقق ذلك أيضاً بالعناية بما يمكن استصلاحه منها والانتفاع به، مثل: الزراعة والثروة الحيوانية التى حث الرسول ﷺ عليها، لنهتدى بدين الإسلام

إلى أن يكون المسلم محافظاً على عناصر البيئة عموماً إلى آخر لحظة من الحياة التى تعقبها الساعة، وذلك فى قولهﷺ:« **إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[1].

ورهب الرسول ﷺ من إتلاف الحيوانات عبثاً حتى ولو كان عصفوراً صغيراً فى قوله ﷺ :« **من قتل عصفوراً عبثا عج إلى الله عز وجل يوم القيامة منه ، يقول : يارب إن فلانا قتلنى عبثاً، ولم يقتلنى لمنفعة**»[2].

ب- احترام البيئة :

من روائع ما دعا إليه القرآن وأكدته السنة تدريب المسلم إذا أحرم بالنسك على احترام حيوانات البيئة ونباتاتها، فلا يحل له قتل صيد البر والحـــــرم، ولا قطع نبات الحرم، قال تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ..﴿٩٥﴾** ﴾[المائدة].

وقال ﷺ يوم فتح مكة:« **إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو بحرمة الله إلى يوم القيامة .. لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يتخلى خلاها**». فقال العباس: يا رسول الله « إلا الاذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: «**إلا الأذخر**»[3]، فقد استثنى فى هذا الحديث الأذخر لحاجة الناس إليه.

واستثنى فى حديث آخر بعض الحيوانات لفسقها، وخروجها على مصالح الناس بالضرر، لحديث عائشة رضى الله عنها: « **أمر رسول الله ﷺ بقتل خمس فواسق فى الحل والحرم : الغراب والحداة والعقرب والفأرة والكلب العقور**»[4].

---

(١) رواه أحمد - ٣/ ١٩١.

(٢) رواه أحمد - ٤/ ٣٨٩ ، والنسائى - ٧/ ٢٣٩ فى الصيد والذبائح.

(٣) رواه مسلم رقم ١٣٥٣.

(٤) رواه مسلم رقم ١١٩٨ فى باب الحج.

وذلك لينتشر الأمان فى البلد الحرام الذى شمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات، فما أحوج البشرية إلى مثل هذه البيئة التى تعيش فيها الكائنات الحية بما فيها الإنسان آمنة على نفسها ومواردها وأرزاقها ويمكن الإشارة إلى أن احترام البيئة يقتضى ما يلى:

١ - حماية البيئة التى سخرها الله تعالى، وجعل تنوعها آية على قدرته وحكمته وعمله وأثر صفاته، وقدر تعالى أن تكون عوناً للإنسان فى حياته، فهى مصدر غذائه وشرابه وكسائه الذى يتبلغ به.

ولا ريب أن هذا يدعو إلى حماية البيئة، والمحافظة على أمنها، ووضع كل شىء فى موضعه الذى أعد له، واستثماره إلى الحد الأقصى الذى يمكن بلوغه الكم وتحسين النوع، وتنقاد معه غلته من غير إسراف أو فساد، فالله قد جعل لكل شىء قدرا تنقاد مع البيئة، لابد من التعرف عليه، ومراعاته أثناء التعامل معه.

قال تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾**﴾[الزخرف].

٢ - صيانة البيئة وتحسينها، فإن ذلك ضرب من احترامها وتقديرها، وشكر المنعم بها، ويقابل ذلك أن إهمالها ضرب من التفريط فى المحافظة عليها، والجهل بقيمتها وبأثرها فى حياة الإنسان وقوة المجتمع.

فقد أرشد الله تعالى آل داود عليهم الصلاة والسلام الذى سخر لهم الجن والرياح وعناصر البيئة إلى تعهد ذلك بالعمل الذى يصون به التسخير، ويكفل استمرار منفعته، وعده من قبيل تقدير النعمة واحترام البيئة[1].

---

(١) البهى الخولى - الثروة فى ظل الإسلام - طبعة دار القلم - ب.ت - ص ٣٢ - ٣٥.

إذ قال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[سبأ].

ثم ختم الإشارة إلى هذا التسخير بقوله: ﴿.. اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[سبأ].

جـ- حماية العناصر الطبيعية الأساسية والمحافظة عليها:

قضت حكمة الله تعالى أن يوظف بعض المخلوقات لخدمة بعضها الآخر، بحيث تلحظ فى الكون كله العناية الإلهية بالأشياء، والحكمة السارية فى عناصر الكون كدليل على الصانع الحكيم.. كما قضت حكمته تعالى أن تكون جميع المخلوقات مسخرة لخدمة الإنسان بالإضافة إلى تسخير بعضها لخدمة بعض.

وأوضح القرآن الكريم أن كل كائن مما نعلمه فى هذا العالم له وظيفتان:

وظيفة اجتماعية لخدمة الإنسان ووظيفة دينية هى آية على وجود صانعه وحكمته وعلمه وإتقانه.

وهذا بيان بالعناصر الطبيعية الأساسية:

(١) الماء:

جعل الله الماء أصل الحياة ومنشأها إذ يقول الله تعالى: ﴿.. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.. ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء].

فالنبات والحيوان والإنسان يرتبط وجودهما بوجود الماء، واستمرار حياتهم متوقف على وجود الماء.

قال تعالى: ﴿..وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا..﴾[البقرة].

وبالإضافة إلى هذه الوظيفة الحيوية هناك وظيفة اجتماعية دينية هى تطهير البدن والملبس مما يعلق به من أوساخ ونجاسات ليصبح الإنسان مؤهلاً للقاء الله تعالى.

قال تعالى:

﴿ ..وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾[الأنفال:١١].

ويقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾[الفرقان].

كما أرشدنا الله إلى وظائف أخرى للماء فى البحار والمحيطات، حيث جعله سكنا صالحاً مهيئاً لحياة كائنات أخرى تؤدى دورها فى عمارة هذا العالم، واستمرار الحياة فيه.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ.. ﴿١٤﴾ ﴾[النحل].

ويقول: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ.. ﴿٩٦﴾ ﴾[المائدة].

ولا شك أن المحافظة على هذا العنصر هى أساس المحافظة على الحياة بأشكالها المختلفة سواء كانت حياة نباتية أو حيوانية أو إنسانية، والقاعدة الفقهية تقول:

(ما لم يتم الواجب به فهو واجب) ومحاولة تعطيل العنصر من أداء وظيفته الحيوية والاجتماعية فهو تعطيل للحياة بأسرها أو إبطال لها بالكلية سواء كان ذلك بإهداره، أو تلويثه بمواد تعطيل وظيفته فى كونه أساس الحياة ، أو كونه بيئة صالحة لبعض الكائنات الحية أو غير ذلك.

ولأهمية هذا العنصر فى استمرار الحياة كلها جعله الله حقاً شائعاً بين بنى البشر، فحق الانتفاع به مكفول للجميع بلا احتكار أو غصب أو إفساد أوتعطيل.

قال تعالى﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾[القمر] ، وقال رسول الله ﷺ : « **الناس شركاء فى ثلاث فى الماء والكلأ والنار**»[1] .

(٢) الهواء :

إن لعنصر الهواء أهمية لا تقل عن أهمية العنصر السابق فى استمرار الحياة والمحافظة عليها. وقد تكون للهواء وظائف أخرى غير مرئية للإنسان ولا تثير اهتمامه إلا أنها مقصودة لله عز وجل كما نبهنا القرآن إليها، فالرياح يرسلها الله عذاباً لبعض الأقوام وانتقاماً منها، والرياح يسوقها الله رحمة وبشرى لأمم أخرى كما علق بها القرآن وظيفة التلقيح إذ يقول تعالى : ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾**﴾[الحجر].

والرياح بعد ذلك آية دالة على قدرة الله وإتقان صنعه وكماله.

كما قال تعالى: ﴿ .. **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾**﴾[البقرة].

وإذا كان للهواء وظائفه الحيوية والاجتماعية فإن المحافظة عليه نقياً خالصاً تعتبر جزءاً من المحافظة على الحياة نفسها التى هى مقصد أساسى من مقاصد الشريعة.. ومحاولة تلويثه أو إبطال وظيفته أو تعطيلها إبطال لحكمة الله فى خلقه، أو تعطيل لها كذلك فإن ذلك يعتبر تعطيلاً لبعض وظائف الإنسان وتعويقاً له عن أداء دوره فى هذا العالم.

(٣) النبات والحيوان :

لا شك فى أهمية النبات والحيوان وفوائدهما العظيمة بالنسبة للإنسان، والقرآن الكريم يرشدنا إلى أن هذه المخلوقات لها وظائف جمالية وتزيينه أيضاً بالإضافة إلى وظائفها الأخرى.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

obeikandl.com

وبما أن راحة النفس مطلب دينى ينبغى توفير أسبابه والمحافظة عليه فقد جعل الله فى المخلوقات ما يثير البهجة والسرور فى النفس حرصاً على راحة الإنسان النفسية لما فى ذلك من دافع له على العمل لأداء وظيفته كما ينبهنا القرآن الكريم إلى وظائف أخرى لهذه المخلوقات قد لا نعلمها ولا نحسها، ولكن القرآن ينبهنا إليها وهى وظيفة العبودية القهرية لله وتسبيحه والسجود له.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. ﴿١٨﴾** ﴾[الحج].

﴿ .. **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴿٤٤﴾** ﴾[الإسراء].

﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴿١٥﴾** ﴾[الرعد].

والإسلام يحرص على بقاء هذه الكائنات حية تتحرك نحو أداء وظائفها المنوطة بها أنه يعتبرها أمما مماثلة لعالم الإنسان حيث يقول تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. ﴿٣٨﴾** ﴾[الأنعام].

ومن هنا علمنا الرسول ﷺ من خلال وصاياه وتعاليمه كيف نهتم ونحافظ عليها؛ فلقد قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بإحراق قرية من النمل بأكملها فأوحى الله إليه: «**إن قرصتك نملة قد أهلكت أمة تسبح**».

وأخبر عليه الصلاة والسلام: « أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»، «كما شكر الله لعبد سقى كلباً فأنقذه من شدة العطش».

ولعن ﷺ: «**جماعة اتخذوا طائرا هدفاً لهم يصوبون إليه ضرباتهم**»، والإسلام ينظر إلى هذه المخلوقات من ناحيتين:

- من ناحية أنها كائنات حية موجودة لذاتها لتحقيق وظيفتها فى الدلالة على قدرة الله وحكمته.

- ومن ناحية أنها مسخرة لخدمة الإنسان، وتؤدى دورها فى عمارة هذا العالم، ومن هنا أوجب الإسلام المحافظة عليها وتنميتها: لذاتها من ناحية، ولمنع الإنسان من إيذائها من ناحية أخرى.

د - حماية الإنسان من المؤثرات الخارجية والمنتجات الكيماوية والفضلات:

إذا كان الإسلام يحرص على حماية العناصر الأساسية فى البيئة والمحافظة عليها لخير الإنسان، وتأمين ضروراته وحاجاته سواء بالنسبة للجيل الحاضر، أو الأجيال اللاحقة فإنه يتجه أيضاً إلى حماية الإنسان نفسه والبيئة نفسها من التأثيرات الضارة للعوامل الخارجية والمنتجات الكيماوية والفضلات.

ذلك أن الضرر ممنوع فى الإسلام فى جميع صوره وأشكاله كما جاء فى الحديث (لاضرر ولا ضرار) كما أن منع الضرر والفساد قبل حدوثه أولى من معالجته بعد حدوثه والقاعدة الفقهية تقول :(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح).

وبالتالى فإن جميع الأعمال التى تهدف إلى تحقيق المصالح والمنافع من تأمين الحاجات والخدمات وتنمية الزراعة والصناعة ووسائل المواصلات، يجب أن تكون فى منأى عن المفاسد والمضار، ولذلك يجب أن يحتاط فى تصورها وتخطيطها وتنفيذها بحيث لا يصاحبها ولا ينتج عنها أى ضرر، أو مفسدة قدر الإمكان.

(١) الضوضاء :

فإذا كانت أكثر الاستخدامات الصناعية والإعلامية والمواصلات تصحب غالباً بالضوضاء، فلابد من البحث والعمل لتجنب هذه الضوضاء أو تقليلها ذلك أن الضوضاء الصاخبة لها تأثيرها الضار على الإنسان وعناصر البيئة الحية من حوله، فلابد من دفع هذا الضرر قدر الإمكان وبجميع الوسائل طبقاً لما جاء فى القواعد التشريعية الإسلامية.

(٢) الفضلات والعوادم والمواد التنظيفية والمواد الضارة :

والفضلات والعوادم التى تنشأ من الاستعمال الإنسانى العادى، أو عن الاستعمالات الصناعية والحضارية المتطورة لابد من إزالتها لحماية البيئة من الفساد والتشوه وحماية الإنسان من آثارها المؤذية. والضارة جمالياً وحيوياً ، وحماية عناصر البيئة الأخرى.

ولكن إزالة هذه الفضلات والعوادم لابد أن تكون بطريقة تنفى إحداث ضرر مماثل لضررها الذاتى أو أكبر منه، والقاعدة الفقهية تقول (الضرر لا يزال بمثله أو بضرر أكبر منه).

وكذلك الأمر فى الآثار الضارة للمواد التنظيفية وغيرها من المواد المستعملة فى البيوت والمصانع والمزارع والمحلات الخاصة والعامة.

فلابد من العمل على تجنيب هذه الآثار ودفعها قبل حدوثها وإزالتها بعد حدوثها مما يحمى الإنسان وبيئته الاجتماعية والطبيعية من أضرارها، وإلا وجب منع استعمالها إذا ثبت أن مفاسها أكبر من منافعها، ولابد عند ذلك من البحث والعمل لإيجاد بدائل أخرى فعالة وغير ضارة، أو أقل منها ضرراً.

(٣) المواد المشعة :

وينطبق ما قلناه سابقاً على المواد المشعة من حيث ضرورة توقى ما قد ينتج عن استعمالها من آثار ضارة بالإنسان وبيئته، ووجوب التخلص من نفاياتها بطريقة صحية.

(٤) المبيدات الحشرية والنباتية :

وينطبق ما قلناه آنفاً على المبيدات الحشرية والنباتية فإن استعمالها يجب أن يكون مقيداً بعدم إحداث ضرر بالإنسان أو بيئته عاجلاً أو أجلاً.

ولذلك يجب منع كل ما يؤدى إلى ضرر الناس وإيذائهم حتى ولو أدى ذلك إلى حدوث ضرر خاص ببعض الأشخاص، أو بمصالحهم لأن الضرر

الخاص يتحمل لمنع الضرر العام والضرر لابد من دفعه بأية وسيلة كانت بشرط أن تكون مشروعة، وأن لا تؤدى إلى إحداث ضرر مماثل للضرر المدفوع أو أكبر منه، والقاعدة الفقهية تقول : يختار أهون الشرين. فإذا كانت هناك ضرورة حيوية لاستعمال هذه المبيدات فإن الضرورات تبيح المحظورات، ولكن الضرورات تقدر بقدرها.

(٥) الكوارث الطبيعية :

كما ينبغى التنبيه والاحتياط للتقليل من تأثيرات الكوارث الطبيعية على الإنسان والبيئة الطبيعية كالفيضانات والسيول والزلازل والبراكين والعواصف والحرائق الكبرى والأوبئة العامة وما إلى ذلك، لأن حماية الإنسان وصيانة نفسه وماله ومصالحه واجب و(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

(٦) المسكرات والمخدرات الأخرى :

من الواضح أن للمسكرات والمخدرات تأثيرا ضاراً على صحة الإنسان وعقله وماله وعرضه ودينه ، فقد ثبت اليوم بما لا مجال معه للشك أن الأضرار الصحية والاجتماعية والنفسية للمسكرات والمخدرات أضرار خطيرة وجسيمة.

ولذلك كان تحريم الإنسان للمسكرات والمخدرات بجميع صورها وأشكالها وبكل ما يتعلق بها ويساعد على إنتاجها وترويجها نموذجاً إسلامياً، ولذلك اهتم التشريع الإسلامى منذ أربعة عشر قرناً بحماية الإنسان والمحافظة على بيئته الاجتماعية والطبيعية من كل عوامل الفساد والأضرار والتلوث بجميع أنواعه. . وهذه الجزئية سيأتى تفصيلها فى الفصل الثالث وكذا فى الفصل الرابع بحوله تعالى.

هـ- القواعد التشريعية الإسلامية التى يمكن أن تبنى عليها جميع الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية البيئة والمحافظة عليها :

١ - حماية البيئة ومواردها والمحافظة عليها وتنميتها واجب دينى شخصى يلتزم به كل فرد مسلم بموجب مسئوليته الفردية عن رعاية نفسه ومجتمعه تجاه ربه، كما أنها واجب اجتماعى عام يقوم به ولاة الأمور والمؤسسات الإدارية والبلدية بمقتضى المسئولية المناطة بهم.

٢ - التوعية الدينية الإسلامية فى هذا المجال أمر ضرورى، ليكون كل فرد عامل حماية وتنمية للموارد الطبيعية والبيئية.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا..﴿٥٦﴾﴾[الأعراف]

ويقول: ﴿..وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[البقرة] باعتبار أن قصد الضرر والإفساد للبيئة الطبيعية ومواردها نوع من الفساد المنهى عنه فى الإسلام بل نوع من السفه المذموم الذى يجب على المسلم اجتنابه ، ويجب على ولى الأمر منعه وبخاصة إذا ترتب عليه ضرر عام.. والأثر يقول:(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم).

٣ - التوعية الدينية الإسلامية تشمل دعوة الأفراد بكل الوسائل وعلى جميع المستويات إلى الالتزام بالآداب الإسلامية فى التعامل مع الطبيعة والبيئة ومواردها استهلاكاً واستثماراً وانتفاعاً وتنمية، ويكون ذلك بتذكيرهم بواجبتهم الدينية التالية:

- عدم التبذير والإسراف فى الاستهلاك.
- عدم تعطيل الموارد، وإتلافها بدون وجه مشروع.
- عدم الإضرار بالبيئة الطبيعية، وعدم إفسادها وتلويثها وتشويهها بأى وجه من الوجوه.

- تعمير الأرض وتنمية عناصرها ومظاهرها عن طريق الإسهام فى تحسين الموارد الطبيعية والكائنات الحية بجميع أنواعها وحمايتها والمحافظة عليها، وزراعة الأرض وإصلاح التربة، وتنظيفها.

٤ - إن ملكية هذه العناصر البيئية حق مشترك بين أفراد الجماعة المسلمة، فمن حق كل فرد أن ينتفع منها بقدر حاجته دون أن يعطل أو يبطل حق انتفاع الآخرين، وتقدر الحاجة هنا بقدرها كما وكيفاً.

٥ - إن تدخل ولاة الأمور لتحقيق المصالح-العامة ودرء المفاسد العامة أمر مقرر فى الشريعة الإسلامية، بل هو واجبهم الأصلى.

وحدود هذا التدخل مضبوطة بالمقاصد العامة للتشريع الإسلامى وبالمصالح الحقيقية المشروعة المنوطة بهم إذ القاعدة الفقهية تقول :(تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة).

ولا شك أن تصرف الإمام على الرعية يفقد مشروعيته إذا كان تصرفاً قائماً على الهوى أو التحكم المحض البعيد عن تحقيق المصالح.

وتدخل الدولة المشروع هو تدخلها لترجيح المصالح العامة الحيوية والواقعية وحمايتها ضمن إطار التفاعل بين المصالح المتعارضة.

٦ - إن المصالح متدرجة فى الأهمية، فهناك مصالح ضرورية، ومصالح حاجية ومصالح تحسينية. وترجيح المصالح الضرورية على المصالح الحاجية أو التحسينية عند تعارضها أولى وأجدر، وكذلك ترجيح المصالح الحاجية على المصالح التحسينية.

٧ - إن المصالح مختلفة فى درجة التحقيق والثبوت فهناك مصالح حقيقية واقعية، وهناك مصالح متوقعة ومحتملة ولاشك أن المصالح الحقيقية أو الواقعية تقدم فى رعايتها على المصالح المتوقعة أو المحتملة.

٨ - إن بعض التصرفات قد تحقق بعض المصالح، ولكنها تجلب مفاسد أشد، أو مفاسد مماثلة والقاعدة فى ذلك تقول :(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) لأن أول درجات جلب المصالح هو درء المفاسد.

٩ - إن واجب ولى الأمر ومعاونيه من السلطات الإدارية أو البلدية أو القضائية أن يسهروا على تحقيق مصالح الأفراد والمجتمع ككل، ومن جملتها حماية البيئة ومواردها والمحافظة عليها وتنميتها، وهذا يشمل المرحلتين:

- مرحلة الوقاية من الضرر.

- ومرحلة علاج الضرر.

١٠- للدولة الحق فى اتخاذ جميع التدابير والإجراءات المتعلقة بمنع الضرر أو تقليله قبل حدوثه بناء على قاعدة منع الضرر، التى تقول: (لا ضرر ولاضرار) أو قاعدة سد الذرائع المؤدية إلى الفساد، فللدولة مثلا الحق فى منع الناس من التصرف المؤدى إلى الضرر أو الفساد سواء كان هذا التصرف تصرفاً آنياً أم تصرفاً إنشائياً مستمراً.

فلا يجوز لأحد أن يفسد على الجماعة حق الانتفاع بعنصر من عناصر البيئة الأساسية كمن يفسد الهواء بالدخان المتصاعد من المصانع. أو من يفسد الماء بهدم البئر العام، أو إلقاء مواد سامة فيه لجعله غير صالح للاستعمال.

وللدولة الحق فى تحديد نطاق التصرف ومكانه وزمانه ونوعيته بما يؤدى إلى منع الضرر، أو تقليله أو حصره فى مكان معين، أو زمن مخصوص.

وللدولة الحق فى فرض تدابير معينة أو ملحقات فنية معينة لمنع حدوث الضرر أو التقليل منه أو حصره فى أضيق نطاق وبأقل تأثير، ويتولى تحديد ذلك أصحاب الخبرة والاختصاص فى كل ميدان.

١١- للدولة الحق فى اتخاذ جميع التدابير والإجراءات المتعلقة بإزالة الضرر الحادث، ومعالجة آثاره والتعويض عنه بناء على قاعدة أن (الضرر لا يزال بمثله) وقاعدة (إذا تعذر الأصل يصار إلى البدل) وقاعدة (الاضطرار لا يبطل حق الغير).

فللدولة مثلاً الحق فى إلزام الأفراد والمنشآت والشركات بإزالة الأضرار الناشئة من استعمالاتهم ومشروعاتهم التى تحتاج إليها الجماعة، والتى يترتب على وجودها ضرر حقيقى بالبيئة يفوق النفع المتوقع منها؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

وإذا كانت الجماعة تحتاج إلى العمل الذى يترتب عليه ضرر ، وكانت المصلحة مصلحة حاجية فإنها تنزل منزلة الضرورة فى إباحة المحظور على أن يدفع الضرر بقدر الإمكان، وأن تقدر الضرورة بقدرها فإذا زالت الحاجة إلى هذا العمل الضار فيجب على ولى الأمر أن يوقفه لأن (ما جاز لعذر بطل بزواله).

وللدولة الحق فى إلزام الأفراد والمؤسسات والشركات بتكاليف إزالة الأضرار الناجمة عن الاستعمالات غير المشروعة التى خولفت فيها شروط الترخيص والإذن والتعاقد، لأن القاعدة الفقهية تقول: (المباشر ضامن) ، وإن لم يتعمد ومع ذلك فإن الأضرار الناشئة عن ممارستهم حقوقهم المشروعة أو المرخص لهم بشكل شرعى، وفى الحدود المعتادة لا يلزمون بضمانها طبقاً للقاعدة الفقهية: (الجواز الشرعى ينافى الضمان).

وللدولة الحق فى إلزام الأفراد والمؤسسات بدفع تعويضات مناسبة عن الأضرار التى يحدثونها فى البيئة الطبيعية دون وجه مشروع ، والتى لا يمكن إزالتها أو معالجتها.

وللدولة الحق فى تعزيز الأفراد وأصحاب المؤسسات والقائمين عليها إذا خالفوا شروط الإذن والتعاقد بتقصير، متعمد أو إهمال واضح، أو خالفوا التعليمات العامة التى تضعها الدولة للمحافظة على البيئة الطبيعية، وعناصرها ومواردها.

و - الجزاء على حماية البيئة والإضرار بها فى الإسلام :

لابد من مجازاة الإنسان على تعامله مع البيئة ، وما فيها من مقومات الحياة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ليعمل على المحافظة عليها ويتجنب الطمع

فيها بما يؤدى إلى إفسادها أو الإسراف فى مواردها؛ رجاء فى الثواب ، وخشية من العقوبة.

قال تعالى على لسان صالح عليه الصلاة والسلام، وهو يخاطب قومه مقرراً عدم الأمن من العقوبة على هذا النعيم الذى يحيط بهم من زروع وعيون وجبال ومساكن ، وعدم استقرارهم فيه، وأنه يجب عليهم الاكتفاء منه بقدر الكفاف الذى يسد حاجتهم فى هذه الدنيا واجتناب إفساده ﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾** ﴾[**الشعراء**: ١٤٦-١٥٢].

ويتقرر من هذه المجازاة أن المكلف مسئول عن هذه النعم المتوافرة فى بيئته، ومحاسب عليها ليس له منها إلا ما يحتاج إليه دون إسراف، وما زاد فيلدعه لغيره ينتفع به.

قال ﷺ لصاحب حائط من الأنصار :« **اطعمنا يسراً**» فجاء بعذق فوضعه فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال :«**لتسألن عن هذا يوم القيامة**» قال : فأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض، حتى تناثر البسر قبل رسول الله ﷺ ثم قال رسول الله «**إننا لمسئولون عن هذا يوم القيامة**».

قال : «**نعم إلا من ثلاث: خرقة كف به الرجل عورته، أو كسرة سد بها جوعته، أو حجر يتدخل فيه من الحر أو القر**»[1].

أنواع الجزاء :

شرع الإسلام الجزاء الذى يحمى البيئة من الفساد، ويصونها من التدمير والعبث، وتمثل فى الجزاء الأخروى والدنيوى:

---

(١) رواه أحمد فى مسنده - ٨١.

الجزاء الأخروى: وهو ما أعده الله تعالى لعباده من الثواب للمطيعين، ومن العقاب للعاصين. وقد تعلق هذا الجزاء على العناية بعناصر البيئة ترغيباً وترهيباً، وثواباً وعقاباً بما يكشف مدى اهتمام الإسلام الذى فاق العقوبة الدنيوية التى قد يفلت منها كثير من الناس، ولكن جزاء الله تعالى فى الآخرة لا ينجو منه أحد، ويدل على تأكيد هذا الاهتمام بعناصر البيئة ومقوماتها ومصادرها ما يلى:

(أ) الترغيب فى غرس الأشجار، وأنه صدقة جارية، ما أكل منها إنسان أو طير أو بهيمة، والوعد بالثواب الجزيل لمن عنى بها قال ﷺ: « **ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة**»[1].

(ب) الترغيب فى الرحمة بالحيوانات، والشفقة عليها واحتساب الأجر فى حمايتها من الهلاك، ففى الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة (هى ضرب من الطير) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فلما جاء رسول الله قال: ﷺ: « **من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**»[2].

فهل هناك رفق أعظم من مراعاة أحاسيس هذه الحمرة؟

وفى حديث آخر ما يؤكد هذه الشفقة أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأ فخفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له**» قالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً؟ قال: «**نعم فى كل كبد رطبة أجر**».

---

(١) رواه مسلم - رقم ١٥٥٢ فى باب المساقاة.

(٢) رواه البخارى ٣/ ٧٧ فى باب المساقاة.

(جـ) الترهيب من تعذيب الحيوانات وتجويعها وإرهاقها بما لا تطيق، أو التسبب فى فنائها، ففى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « **دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»[١].

وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ دخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل فلما رأى النبى ﷺ حن، وذرفت عيناه، فأتاه النبى ﷺ فمسح ذفراه (هما الموضع الذى يعرف من قفاه) فسكت **فقال : «من رب هذا الجمل؟»** فجاء فتى من الأنصار، فقال: لى يا رسول الله. فقال له : «**أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه (أى تتعبه)**»[٢].

وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ رأى قرية نمل قد أحرقت: فقال: «**من أحرق هذه؟**» قلنا: نحن، قال: « **إنه لا ينبغى أن يعذب بعذاب النار إلا رب النار**»[٣].

د - الترهيب من قطع الأشجار البرية النافعة عبثاً أسوة بالأحياء الأخرى من الحيوانات، والوعد بالنار على ذلك تأكيداً على حماية النباتات والأشجار والمسطحات الخضراء من التعدى عليها من غير مصلحة أو دفع مفسدة، قال ﷺ : « **من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار**»[٤]، قال أبو داود راوى الحديث مبيناً معناه لما سئل عنه: «هذا الحديث مختصر ، يعنى من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه فى النار»[٥]، والسدر المقصود هو ما نبت فى البر قاله الأصمعى.

---

(١) رواه البخارى ٤/ ١٠٠.
(٢) رواه أبو داود رقم ٢٥٤٩.
(٣) رواه أبو داود ٢٦٧٥.
(٤) رواه أبو داود ٥٢٣٩.
(٥) سنن النسائى : ٤/ ٣٦١.

الجزاء الدنيوى : هو ما يناله المكلف المطيع فى الدنيا من ثواب والعاصى من عقاب، يتوجه إلى رعاية المصالح المحسوسة التى تتعلق بها حاجة الناس، وما تتطلبه الحياة من إعمار ودفع المفاسد والمضار.

الثواب الدنيوى : هو نفع يتم فى مقابل الإحياء، ومنه تمليك الأرض قال ﷺ : « **من أحيا أرضا ميتة فهى له**»(١). وحقيقة الإحياء إعمار لأرض ميتة لا يملكها أحد بالسقى أو الزرع أو الغرس أو البناء سواء كانت قريبة من العمران أم بعيدة، ويؤيد هذا المعنى قول الرسول ﷺ : « **من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها**»(٢).

العقوبة الدنيوية : هى أذى فى الظاهر لدفع المفاسد وفى الإسلام يبقى الجزاء الأخروى مع العقوبة الدنيوية المحسة رادعاً قوى التأثير فى حماية الأحكام والحدود وحمل الناس على تنفيذها والتقيد بها، لأنهم يتساوون فى الإيمان بالعقوبة المحسة ويتفاوت إيمانهم بالجزاء الغيبى، وإن كان أكثر زجراً للمؤمنين.

ومن تلك الأحكام التى تناولها العقوبة الدنيوية؛ نظراً لأهمية المعاقب عليه، وهو أمن البيئة والمحافظة على مقوماتها وعناصرها فقد شرع الإسلام عقوبة صارمة هى عقوبة الإفساد فى الأرض.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾** ﴾[المائدة].

قال الشوكانى: (اختلف فى هذا الفساد المذكور فى هذه الآية ماذا هو؟ فقيل الشرك، وقيل قطع الطريق. وظاهر النظم القرآنى أنه ما يصدق عليه أنه فساد

---

(١) رواه مالك فى الموطأ ٧٤٣.

(٢) رواه البخارى ٣/ ٧٠.

فى الأرض فالشرك فساد فى الأرض، والبغى على عباد الله بغير حق فساد فى الأرض وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد فى الأرض فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فى الأرض»[1].

وقد فصلت الآية العقوبة، وقصرها كثير من الفقهاء على الاعتداء على الأنفس والأموال مع الإخافة إلا أن الآية تبقى على عمومها فيما يهدد مصالح المسلمين، كما صرح به الشوكانى.

ولاريب أن إهلاك الحرث والنسل والإسراف فى الصيد والرعى إلى حد الجور وتغوير الأنهار، وتلويث مجارى المياه والبحار لهو من أعظم الفساد، وصدق الله العظيم؛ إذ وصف ذلك بالفساد فقال: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾** ﴾[البقرة].

ومن العقوبات التعزير الذى يمكن أن يوقعه ولى الأمر تأديباً حماية لمصالح المسلمين المتعلقة بموارد البيئة ومقوماتها بما يكف العابثين والمسرفين والمفسدين على وجه الاستصلاح والزجر.

ومن العقوبات تذوق الفساد حسب قدره فى البيئة، والاكتواء بناره، والتألم بما يصيب منه لارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم عند غياب المنهج القويم والعمل الصالح[2]. والاستسلام للأهواء التى تؤدى إلى فقدان الانسجام مع البيئة والمحافظة على مواردها تقديما للمصالح وترجيحاً للشهوات، قال تعالى:

﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾** ﴾[الروم].

---

(١) سيد قطب - فى ظلال القرآن - القاهرة - دار الشروق - ب . ت - ٥/ ٢٧٧٣.

(٢) سيد قطب - المرجع السابق - ٥/ ٢٧٧٣.

كل ذلك يحدث وفق سنن الله التى لا تعرف تبديلاً ولا محاباة، لعلها توقظ النفوس من غفلتها، فتراجع إلى الهداية التى تحث على إصلاح ما فسد وإعمار ما هلك.

وبعد أن تناولنا فى هذا الفصل أربع قضايا مهمة تتصل بعموميات إسلامية عن البيئة والكون والطبيعة، ثم تحديد كيفية حفاظ الإنسان على البيئة، وكيفية حمايته لها؛ فإننا نستطرد فى تناول قضايا أخرى فى الفصل الثالث وهى قضايا بيئية معاصرة نعرض لها تشخصياً وعلاجاً فى ضوء الإسلام.

obeikandl.com